حكيم من الهند :

قال احد الهنود المسلمين "جميع ما أنجزته في حياتي بفضل ا و مشيئته، وأضاف أن من أهم وظائف الصلاة العمل كحافز للأفكار الخلاقة". ويقول المسئول الهندي "كنت أجمع بذور التمر لأبيعها في البقالة و أساعد في توزيع الصحف لأحد أقربائي، وكنت أبيع الزيت و البصل و الأرز في بقالة أخي الأكبر في أوقات العطل الجامعية". و أردف قائلا "قراري بأن أكون نباتيا يعود في جزأ منه إلى القيود المالية عندما كنت طالبا في الكلية". قال له والده " عندما تعبد ا، تكون كأنك تسمو فوق الوجود المادي و تصبح جزءا من الكون الذي لايعرف أي تقسيم أو تمييز على أساس المال أو العمر أو الطبقة أو الطائفة". وردت تلك العبارات في كتاب "أجنحة من نار" و الذي يروي السيرة الذاتية لرئيس جمهورية الهند السابق و احد علماء الصواريخ المتميزين في العالم "زين العابدين عبد الكلام". وأحببت، عزيزي القارئ، أن أقدم لك ملخصا لما ذكر في الكتاب.

ولد عبد الكلام في أسرة تاميلية في جزيرة بولاية "مدراس" الهندية. وقد كان والده يصطحبه للصلاة في مسجد حارتهم. كان الناس من ديانات مختلفة ينتظرون خروج والده من المسجد لكي يمدوا إليه صحونا مملؤة بالماء ليغمس فيها أصابعه و يدعو لهم ليرجعوا بها كي يشرب منها المرضى.

يقع منزل عبد الكلام بالقرب من معبد شيفا الشهير الذي جعل مدينتهم مكانا مقدسا للحجاج الهندوس. ويوجد العديد من الأسر الهندوسية التي تعيش بسلام بجوار المسلمين. عندما كان عبد الكلام في الصف الخامس حضر إلى فصلهم مدرس جديد. وكان عبد الكلام يلبس قلنسوة تميزه كمسلم بين ألآخرين و كان دائما يجلس في الصف ألأمامي إلى جانب أبن الكاهن الأعظم للمعبد الهندوسي و الذي يعتبر والده صديق لوالد عبد الكلام. لم يحتمل المدرس ذلك الموقف و طلب من عبد الكلام ترك مقعده و الجلوس في الصف الخلفي. بعدما علم بذلك الكاهن، أستدعى المدرس و أبلغه بحضور الطالبين ألا يبث سم عدم المساواة الاجتماعية و التعصب الديني في أذهان ألأطفال البريئين. ثم طلب منه أن يعتذر أو يترك المدرسة و الجزيرة. و قد اعتذر عن ما فعله.

حصل عبد الكلام على شهادة بكالوريوس في العلوم و بعدها التحق بمعهد "مدراس" للتكنولوجيا لدراسة هندسة الطيران و قد ساعدته أخته زهراء بدفع تكاليف الدراسة برهن أساورها و قلادتها الذهبية. بعد دراسته للهندسة التحق كمتدرب بشركة هندوستان للطيران المحدودة، و بعدها التحق بمديرية التطوير

والإنتاج التقني التابع لوزارة الدفاع كمهندس مساعد في عام 1958م. و قد قام بمهمة تصميم طائرة موجهة أسرع من الصوت. و أنتقل بعد ذلك إلى مؤسسة تطوير الطيران و عمل في تصميم النموذج الأول للحوامات. و بعدها عمل في اللجنة الهندية للبحوث الفضائية كمهندس صواريخ.

أشرف عبد الكلام على تطوير نظام الإقلاع بمساعدة الصاروخ لاستخدامه في الطائرات الحربية ليمكنها من الإقلاع من مدرج قصير المسافة قد يكون موجود في جبال الهملايا و قد تم ذلك بنجاح في عام 1972م. و قد وفر ذلك 40 مليون روبية من العملة الأجنبية. يذكر عبد الكلام أن أحد رواد علماء صناعة الصواريخ في الهند البروفسور سارابهاي ناقش معهم حلمه بتصميم و تصنيع مركبة هندية لإطلاق الأقمار الصناعية. وقد أصدرت الهند بعدها خطة عشرية للأبحاث الفضائية أعدها البروفسور سارابهاي و تشمل على استخدام الأقمار الصناعية للبث التلفزيوني و التعليم التطويري و الأرصاد الجوية و الاستشعار عن بعد لإدارة المواد الطبيعية و تدشين و تطوير مركبات إطلاق الأقمار الصناعية. كما أسند لعبد الكلام قيادة مشروع تطوير مركبة إطلاق الأقمار الصناعية و تطوير المرحلة الرابعة من مركبة إطلاق الصواريخ. في عام 1980م أقلعت أول مركبة إطلاق أقمار صناعية هندية لوضع القمر الصناعي الهندي في المدار. وقد كانت الهند خامس بلد يحقق القدرة على إطلاق القمر الصناعي. وبذلك سجلت الهند دخولها في المجموعة الصغيرة للأمم التي تمتلك القدرة على إطلاق القمر الصناعي. بعد شهر من ذلك وأثناء إلقاءه محاضرة في بومباي، طلب منه أن يقابل رئيس وزراء الهند الراحلة انديرا غاندي لتهنئته بالنجاح و لكنه واجهته مشكلة تتعلق بملابسه، حيث لم تكن رسمية. و قد قال له رئيسه "انك ترتدي حلة النجاح الجميلة". و قد رحب به في البرلمان الهندي و طلبت منه رئيسة الوزراء إلقاء كلمة للجميع وقد قال لهم " "إنني اعرف فقط كيف ابني نظاما صاروخيا في بلادنا، يقذف قمرا صناعيا محليا بسرعة 25 ألف كيلو متر في الساعة الواحدة" و قد غمرت السعادة الجميع الذين صفقوا له. وقد تم تعيينه في عام 1982م كمدير لمختبر الأبحاث و التطوير الدفاعي وقد عمل تحته 500 عالم. والميزانية المقدرة لبرنامج تطوير الصواريخ الموجهة كانت 4 مليار روبية على مدى 12 عاما بمشاركة 12 مؤسسة أكاديمية و 30 مختبرا . وقد نجحوا في إطلاق نموذج صاروخ ارض-ارض في عام 1988م قادر على إيصال رأس حربي تقليدي يزن 1000 كجم إلى مسافة 150 كم بدقة تبلغ 50 مترا دائريا. أرسل إطلاق الصاروخ موجات صدمة إلى جميع دول الجوار غير الصديقة. وفي شهر مايو عام 1989م، تم إطلاق صاروخ "اغنى" ، وهو صاروخ موجه متكامل.

مما جاء في الكتاب، أن والده قال له " إن المحن دائما تمنحنا الفرص للتأمل و التفكير".وأضاف والده "عليك أن تسيطر على حنينك للأرض و تكبح ذكرياتك لتنتقل إلى عالم أخر حيث تستطيع تحقيق أحلامك و طموحاتك" و قال له " من يعرف الآخرين ذو علم، لكن الحكيم من يعرف نفسه، و لا فائدة من علم بلا حكمة"

يقول عبد الكلام، "معظم الهنود يعانون من البؤس و الشقاء بسبب عدم معرفتهم كيفية إدارة عواطفهم"، وأضاف "أن أكبر مشاكل يواجهها الشباب الهنود كما أشعر هي نقص وضوح الرؤية وقلة التوجيهات"، و استطرد في مكان أخر قائلا "المشاكل هي جزء من الحياة و المعاناة أساس للنجاح". ومما قاله أيضا "كانت الحروب ما قبل التاريخ تندلع على الغذاء و الملجأ. و بمرور الزمن أصبحت الحروب تندلع بسبب المعتقدات الدينية و الأيديولوجية، والآن تدور رحى الحروب المتقدمة على التفوق الاقتصادي و التكنولوجي" و قا."لأساس النظام العالمي الحديث، التفوق عن طريق التكنولوجيا. احرموا خصومكم من أحدث التكنولوجيات ثم أملوا شروطكم في منافسة غير متكافئة." و في مجال الاتصال قال " إذا احتجت إلى كتابة رسالة إلى مركز عمل ما، أرسل فاكسا، إذا احتجت إلى إرسال فاكس اتصل هاتفيا، وإذا احتجت الاتصال هاتفيا، قم بزيارة مكان العمل شخصيا".

أرجو أن تكون، عزيزي القارئ، قد استمتعت بالتجوال في فكر احد حكماء الهنود وهو الرئيس السابق لجمهورية الهند واحد علماء الصواريخ المتميزين في العالم "زين العابدين عبد الكلام"، حيث تتجلى ثقافة العطف و البعد الإنساني و الإبداع. و تذكر قوله "كنت أبيع الزيت و البصل و الأرز في البقاله". و تذكر قول والده له" عندما تعبد ا، تكون كأنك تسمو فوق الوجود المادي و تصبح جزءا من الكون الذي لايعرف أي تقسيم أو تمييز على أساس المال أو العمر أو الطبقة أو الطائفة".